بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاص بمصر في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث، وكان المؤرخون للأدب العربي- كما ذكرنا في مقدمة الجزء الخامس من هذه السلسلة- يُدْخلون منه أكثر من ثلاثة قرون في العصر العباسي الثاني تنتهي سنة ٦٥٦ حين أغارت قطعان المغول على بغداد، وقوَّضتْ ما كان بها من مدينة وحضارة،وهو خطأ محض لأن سلطان الخلافة العباسية كان قد تداعتْ أركانه منذ دخول البوهيين بغداد سنة ٣٣٤ إذ لم يعد لها سلطان حقيقي إلا على بغداد وأعمالها، بل إن سلطانها في بغداد كان سلطانًا منقوصاً، إذ كان السلطان الحقيقي فيها بيد البويهيين ومن خلفوهم من السلاجقة. وصحب ذلك توزع العالم العربي إلى دول وإمارات حتى العصر الحديث. وأيضا كان هؤلاء المؤرخون للأدب العربي يسمون القرون الثلاثة التالية لغزو المغول بغداد باس العصر المغولي، بينما كان سلطان المغول لا يتجاوز العراق وإيران، ومن الخطأ الواضح أن نقول الديار أي ظل، والصحيح أن عصر الدول والإمارات كان يظلها، وأمتد جناحها زمنياً حتى شمل ما سماه المؤرخون باسم العصر العثماني.

وينبغي أن نعرف أن الطول الزمني لعصر الدول والإمارات لا يعنى أن تاريخ الأدب العربي ظل في كل دولة من دول من دولة أو إمارة من إماراته متسماً بسمات أدبية واحدة في أزمنته المتغايرة عبر قرونه المتطاولة، مهما مرَّ بالدولة أو الإمارة من أحداث

obeikandl.com

ومهما ألم بها من خطوب فإن ذلك يخالف طبائع الشعوب المتطورة دائماً من زمن إلى زمن. وهو ما جعلني أقسِّم تاريخ الأدب في كل بلد تقسيماً زمنياً يحيط بأطواره الأدبية المتعاقبة وصورة مجتمعة وحياته العلمية.ودعاني ذلك إلى أن أرجع في كل قطر إلى الحقب السالفة لعصر الدول والإمارات منذ الفتح العربي لها لا سياسيًا فحسب، بل أيضاً اجتماعياً وأدبياً وعلمياً، حتى تتضح شخصية القطر بكل ما يتميز به في حياته السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية منذ فجر تاريخه العربي إلى العصر الحديث. وقد يُظن أن طول هذا العصر دفع إلى شيء من التقاطع الأدبي أو العلمي بين دولة وإمارته، وهو ظن مخطئ. فقد كان بين شعوبها جميعاً تواصل لا ينقطع أشبه بتواصل ذوى الأرحام: تواصل في العادات والتقاليد والمعيشة والدين والأدب والعلم، واستشعر ذلك أسلافنا إلى أقصى حد،فكانوا إذا ألقوا كتاباً عن الشعراء مثلاً ساقوا فيه شعراء العالم العربي جميعاً كما في اليتيمة للثعالبي والخريدة للعماد الأصبهاني، وبالمثل إذا ألقوا كتاباً عن القراء أو المفسرين أو المحدثين أو عن صنف من الفقهاء كالشافعية أو عن النحاة. ودأبوا منذ القرن الثامن الهجري يجمعون في القرن علماء العالم العربي وأداء، ميعاً في كتب مرتبين فيها ترتيبها أبدياً بحيث نستطيع أن نؤرخ في كل قرن للحركتين الأدبية العلمية في أي قطر عربي، ومعنى ذلك أنه ظلت تربط بين الأقطار العربية طوال عصر الدول والإمارات والأزمنة قبله واحدة أدبية وجدانية وعلمية عقلية.

وقد بدأتُ في هذا الجزء بعرض تاريخ مصر السياسي، وأقدمُ الأزمنة التي خطَّها التاريخ بها زمنُ الخلفاء الراشدين وما تلاه سريعًا من زمن الأمويين، وفليهما اخذ

الدين الحنيف ينتشر في مصر ويعتنقه كثيرون من سكانها القبط. ويحكمها ولاة من قبل العباسيين ويدخلها مع جنودهم كثي رمن العناصر الفارسية. وتستشعر مصر عهد الإخشيديين. وتستولي عليها الدول الفاطمية وتنشئ فيها خلافة شيعية مستقلة عن خلافة العباسيين ببغداد، وتبوء جميع محاولاتها بنشر عقيدتها الإسماعيلية الشيعية بين المصريين بإخفاق ذريع. ويمتد حكمها أكثر من مائتي عام، وتأخذ في الضعف بعد نحو قرن وينزل حملة الصليب الشام في أواخر القرن الخامس الهجري ويستولون على بيت المقدس. ويَغِطّ خلفاؤها في نوم عميق إلى أن قيَّض الله لمصر صلاح الدين الأيوبي، فأسس بها الدولة الأيوبية، وأخذ يسحق ضلوع حملة الصليب في حِطِّين وغير حطين، وتبعه خلفاؤه الأيوبيون ينزلون بهم ضربات قاصمة. ويخلفهم المماليك، وينزلون المغول في عن جالون ويمزقون جموعهم، وتفرُّ فلولهم على وجوهها إلى الشمال، ويطهرون الشام من تلك الفلول ومن بقايا حملة الصليب ورجْسهم. ويدور الزمن دورات وينزل العثمانيون مصر، وتتحول من دولة ذات سلطان عظيم إلى ولاية عثمانية.

ويُحيل النِّيلُ مصر من قديم جنات وزروع غروس شتى، وأهَّلها ذلك لرخاء واسع- على مر الزمن- لمن يسعون في مناكبها. ودائمًا كان بها- في العهود الإسلامية- ثلاث طبقات: عليا، ووسطي، ودنيا، وفي الطبقة العليا الوالي وصاحب الخراج، والقاضي، وقواد الجند، وكبار الإقطاعيين، وكبار التجار ومعهم الأشراف من البيتين العباسي والعلوي. وفي الطبقة الوسطى العلماء والجند وأوساط الزراع والصناع والتجار، وفي الطبقة الدنيا أهل الريف وعامة الصناع والتجار والرقيق من أواسط أفريقيا ومن أرمينية وشعوب البحر المتوسط. وترك الحكامُ للكنسية وكبار الإقطاعيين

من القبط ما لهم من الأرض وحقولهم نظري الخراج، وأدى المقتدرون من القبط الجزية، وهى في حقيقتها ضريبة دفاع، إذ لم يكونوا يشتركون في الحرب وحماية وطنهم. وكانت الزراعة تدرّ كثيرًا من طيبات الرزق، وكانت الصناعة رائجة: صناعة الورق والنسيج واستخراج بعض المعادن كالنطرون. وتلقى مصر بكنوزها في حجر أحمد بن طولون فيبني قصره العظيم، وجامعه الكبير وبيمارستانًا ضخمًا، ويغرق ابنه خمارويه في ترف بالغ. وتنعم الدولة الإخشيدية بثراء مصر، ويتضخم في عهد الفاطميين، ويكثرون من القصور والبذخ والترف وأدواته. ويتسعون في الاحتفال بالأعياد الإسلامية، أعياد القبط والفرس. وأصبحت مصر في عهد صلاح الدين وخلفائه الأيوبيين ثكنة حربية تُعِدُّ لضرب حملة الصليب الضربات القاضية، ومع ذلك اتسعت مصر في العمران وبناء المدارس الكثيرة والخانقاهات. ويخلفهم المماليك، وتعيش مصر طوال زمنهم في رغد من العيش، وتزدهر بها الحياة والعمران ازدهاراً واسعاً وكانت قد أصبحت ملاذاً لعلماء العالم العربي النازحين من وجه النورمان والأسبان غرباً ومن وجه المغول شرقاً. وتدور بها الدوائر فيحتلها العثمانيون، ويزايلها غير قليل من الرخاء ومن منزلتها الكبرى في العالم العربي.

وتحدثت عقب ذلك عن الدعوة الفاطمية الإسماعيلية الشيعية المتطرفة ومبادئها وتمسك المصريين بعقيدتهم السنية وكأنما كانت تلك الدعوة بمصر صيحات ذهبت أدراج الرياح وبالمثل تحدثت عن الزهد وكيف أ، مصر عرفت الضربين من التصوف الفلسفي والتصوف السني مع باين أهم طرقه وأعلامه وخانقاهاته.

obeikandi.com

ومعرف ما لمصر من دور عظيم في نـشأة الحـضارة الإنـسانية ونـشأة العلـم بمعنـاه العالمي وظلت ترعاه طويلاً. وكانت قد خدمت جذوته قبيل نزول الإسلام بها، وعـاد إليها الاتقاد تدريجاً بحيث لا نصل إلى أواسط القرن الثاني الهجري حتى يصبح لعلمائها حظ واضح من المساهمة في الدراسات الدينية ونشرها في العالم العربي، فهي تنشر قـراءة ورش ومذهب مالك في بلاد المغرب والأنـدلس، وتنـشر مـذهب الـشافعي في الـشام وبغداد وخراسان. وسرعان ما تكتب تاريخ الفتـوح لإفريقيـا والأنـدلس لأول مـرة، وتكتب رواية للسيرة النبوية الزكية، تصح إمامًا لكتب الـسيرة الـشريفة، ويـضع أحـد أبنائها وهو ذو النون أسس التصوف الإسلامي. وتزداد حركتها العلمية نشاطاً في عهد الفاطميين ويؤسسون بها جامعة سموها دار العلم، ألحقوا بها مكتبـة ضـخمة. وتأخـذ الحركة العلمية بمصر في ازدهار واسع لعهد الأيـوبيين ومـا أسـسوا بهـا مـن عـشرات المدارس. ويزداد عددها في عهد المماليك ازدياداً مفرطًا حتى ليقول ابن بطوطة حين زار مصر لأيامهم إن أحداً لا يستطيع أن يحيط بها لكثرتها. ولم تكن المـدارس وحـدها دور العلم فقد كانت تشاركها في ذلك المساجد والجوامع مثل الجامع الأزهـر. ومعـه خمـود تلك الحركة العلمية في عهد العثمانيين ظلت مصر حامية للتراث العربي، وموئلاً لعلـماء المغرب والمشرق. وظلت تضيء في جامعة الأزهر مصابيحُ العلم والعرفان.

وعرضتُ نهضة العلم المختلفة بمـصر عرضـا تفـصيلياً تاريخيـاً عـلى مـر الأزمنـة، وبدأت بعلوم الأوائل، وألمت بها كان لمصر فيها من نشاط قبل الفـتح العـربي سـواء في الهندسـة أو الرياضـة أو الفلـك أو الطـب أو الكيميـاء أو الفلـسفة. وانتفعـت مـصر الإسلامية بما كان فيها من هذا التراث، وضمت ليه ما تقل ببغداد من الفلـسفة وعلـوم

obeikandi.com

الأوائل عن اليونانية وغير اليونانية. وقد تحدثت عن النشاط في علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد وأعلام مصر فيها جميعاً على مر التاريخ ومع كل علم منصفاته القيمة. وأيضاً عرضت علوم القراءات والتفسير والحديث النبوي والمذاهب الفقهية وعلم الكلام والتاريخ وعملاءها جميعًا على تعاقب الحقب، وما لم من مصنفات بالغة القيمة، وذكرت في كل علم من العلوم الدينية والغوية وعلوم الأوائل من نبغوا فيه أيام العثمانيين. وبذلك أصبح التاريخ العلمي لمصر وعلمائها الأفذاذ في كل علم وفن مرسوماً رسماً بينا دقيقاً منذ القرن الثاني الهجري حتى العصر الحديث.

وقد أخذت مصر- بعد الفتح العربي- تتعرب سريعاً لاعتناق كثير من سكانها القبط الإسلام لما استقر في نفوسهم من أن مَنْ يسلم منهم يصبح له جميع حقوق العربي الفاتح، ويدلُّ بوضوح على كثرة من أسلم منهم أن الجزية التي كانت تؤخذ من القبط في عهد عمر بن الخطاب هبطت إلى اقل من النصف في عهد معاوية. وعلمت على السرعة في تعرب مصر هجرات كثير من القبائل إليها حين سمعوا بزروعها وثمارها وطيبات الرزق فيها، وامتزوا بسكانها عن طريق المعيشة والمصاهرة، مما أعد لتعرب من لم يدخل من القبط في الدين الحنيف،حتى إذا كنا في القرن الثالث الهجري ثم تعرب القبط برهانهم وبطاركتهم وإن ظلت القبطية حية في بعض الأديرة.

وكان نشاط الشعر العربي بمصر محدودًا زمن الأمويين لأن كثرة الجيش العربي الفاتح كانت من اليمنية والشعر إنما يكثر على لسان القبائل المضرية والقيسية، وربما نظمت بها أشعار لم يسجلها الرواة، حتى إذا كنا في زمن ولاتها العباسيين رأينا الشعر

obeikandi.com

يأخذ في النشاط بها، ونزلها أبو نواس وأبـو تمـام، وأزداد نـشاطه فيهـا لعهـد الـدولتين الطولونية والإخشيدية ونزلها المتنبي وأحدث نزولها بها حركة أدبية خصبة.

وتتحول مقاليد الحكم فيها إلى الدولة الفاطمية ويترجم الثعالبي في كتابه "اليتيمـة" لكثيرين من شعراء مصر، ويفرد لها العماد الأصبهاني مجلدين في كتابه "الخريدة" تـرجم فيهما لمائة وأربعين شاعرًا، ويطرد هذا الازدهار للشعر في مصر طـوال زمـن الأيـوبيين والمماليك، وتظل منه بقية أيام العثمانيين.

ويكثر في مصر الشعر الدوري منذ ابـن وكيـع التنيـسي في القـرن الرابـع الهجـري، وتكثر الرباعيات حتى إذا ازدهرت الموشحات في الأنـدلس درسـها ابـن سـناء الملـك شاعر صلاح الدين الأيوبي ووضع لها عروضها ورسومها كما وضع الخليل بن أحمـد في القرن الثـاني الهجـري عـروض الـشعر العـربي ورسـومه. ولابـن سـناء الملـك فليهـا مرشحات تشيع فيها حلاوة الجرس والسلاسة والعذوبـة، وبـذلك كتـب لهـا الـذيوع الواسع بعده في مصر على ألسنة الشعراء مثل العزازي، وأكثر المتصوفةُ في زمن المماليـك من النظم فيها وتحلينها في أذكارهم. وستظهر الشعراء- منذ القاضي الفاضل من النظم فيها وتحلينها في أذكارهم. ويستظهر الشعراء- منـذ القـاضي الفاضـل- ألـوان البـديع ومحسناته، ويصبح التفنن فيها مقياس إبداعهم.

وأخذتُ- بعد ذلك- أترجم لأعلام الشعر في مصر طوال عصر الدول والإمارات محللاً لشخصياتهم الأدبية وموزعًا لهـم عـلى أغـراض الـشعر موضـوعاته الأساسـية، فللمديح أعلام مبدعون من مثل ابن سناء الملك واضع عروض الموشـحات، وللرثـاء والشكوى أعلامهما النابهون مثل على بن النـضر بملكتـه الـشعرية الخـصبة، وللـدعوة

obeikandi.com

الإسماعيلية أعلام مختلفون مثل ابن هانئ الشاعر الفاطمي، وللغزال أعلام ووجدانيون مرهفون مثل البهاء زهير، وللخفر والهجاء أعلام مبرزون مثل تميم بن المعز وابن الذرويى المقذع في هجائه، وللطبيعة ومجالس اللهو أعلامها مثل الشريف العقيلي وله في الطبيعة المصرية ديوان كبير بديع، وللزهد والتصوف والمدائح النبوية أعلام يتغنون بالحب الإلهي مثل ابن الفارض وبالحب النبوي مثل البوصيرى، وللفكاهة أعلام تموج أشعارهم بالتندير والدعابات والتوريات والهزل مثل ابن دانيال وله مسرحيات هزلية بديعة.وعرضت شعراء الشعر الشعبي العامي وطرائف مما نظم أعلامه من فنونه في الأزجال والتوريات والفكاهات المستملحة. وبلغ من ترجمت لهممن شعراء مصر الأفذاذ في عصر الدول والإمارات اثنين وأربعين شاعرًا، ومع كل شاعر تصوير شخصيته الأدبية وخصائصه الفنية وروائع شعره. وقد ذكرت مع كل غرض من أغراض الشعر شاعرا نابها من الشعراء أيام العثمانيين. ولم أترجم لعشرات من شعراء مصر تكتظ به مكتب الطبقات والتراجم لأنه لم يكن لأحدهم دور بارز في تطور الشعر بمصر، وأنا لا أكتب دائرة معارف لشعرائها على مر الأزمنة، وإنما أكتب تاريخها الأدبي في الشعر، ومن كان لهم دور في التطور به أتاح لهم مجدًا أدبياً كثيرًا أو قليلاً.

ومضيت أعرض النثر وكتابه بمصر بادئها بالرسائل الديوانية منذ أنشأ أحمد بن طولون ديوان الإنشاء وأتخذ له كتاباً مجيدين. ويعنى الفاطميون بهذا الديوان ويشتهر فيه غير كاتب بحسن بيانه، وخاصة في الحقبة الأخيرة من أيامهم. وتبلغ الرسائل الديوانية الذروة الأدبية على يد القاضي الفاضل وزير صلاح الدين، ويتألق نجمه

obeikandl.com

وتصبح له مدرسة كبيرة، ويتكاثر تلاميذها في بقية أيام الدولة الأيوبية ودولة المماليك، وترجمت لأربعة من أعلام الكتابة الديوانية. وأخذت الرسائل الشخصية تزدهر بدورها منذ زمن الفاطميين، واتسع ازدهارها بعدهم، وترجمت لثلاثة من أعلامهم النابهين. ويعني بعض الكتاب- منذ أيام الفاطميين- بكتابة المقامات وقلما تقوم على الشحاذة الأدبية مثل مقامات الحريري، إنما تقوم على بعض مسائل علمية، أو على وصف الطبيعة، أو على قصص فكه، أو على وعظ أو على مفاخرات بين الأزهار، أو بين السيف والقلم، وما إلى ذلك من موضوعات أدبية، وترجمت لأربعة من كتابها البارعين. وتكثر المواعظ والابتهالات والمناجيات الربانية على نحو ما صورت ذلك عند ثلاثة من أعلامها المهمين. وعرضت- بعد ذلك- أربعة من كتب النوادر هي: كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف، وهو حكايات قصيرة لطيفة تحض على عمل الخير، وكتاب أخبار سيبويه في نقد أحكام والناس ممزوجًا بالتَّبالُه، وكتاب الفاشوش في حكم قراقوش وكان صلاح الدين ينيبه عنه أحياناً في حكم القاهرة، وصوره ابن مماتي في طائفة من الأحكام الطائفة تحي غفلته وحمقه وبلهه، وكتاب هز القحوف ويكتظ بنوادر لاذعة على لسان أهل الريف المصري تصور بؤسهم أيام العثمانيين، وتلا ذلك أربع سير شعبية: سيرة عنترة، السيرة الهلالية، وسيرة الظاهر بيبرس، وسيرة سيف بن ذي يزن، وجميعها تصور البطولة العربية وفضائلها الرفيعة. وعرضت أخيراً كتاب ألف ليلة وليلة وتاريخ نقله إلى العربية وما أضيف إلى قصصه الهندية من قصص بغدادية وقصص مصرية مع بيان ما يتميزه به كل نوع من أنواع هذه القصصِ. وقد صاغت مصر الكتاب لغتها العامية وانتشر بها في العالم العربي منذ عصر المماليك. وبنفس العامية

obeikandl.com

انتشر في البلاد العربية من قديم ما ألفته مصر من كتب السيرة الشعرية المذكورة آنفاً: سيرة عنترة وأخواتها. وكان لذلك أثره الكبير في تعرف تلك البلاد على العامية المصرية قبل العصر الحديث بمئات السنين.

وهذه الدراسة المتشعبة لتاريخ الأدب العربي في مصر أثناء حقبة طويلة تمتد من فجر تاريخها العربي إلى العصر الحديث جعلتني أرجع إلى كل ما استطعت من المصادر والمراجع المتصلة بتاريخ مصر ودولها المتعاقبة، وبمجتمعها وطبقاتها وشئونه المعيشية والعقيدية، وبالحركة العلمية فيها ونموها وازدهارها، مع العرض التاريخي لعلمائها الأفذاذ في علوم الأوائل والعلوم اللغوية والدينية والكتابة التاريخية. ورجعت أيضاً إلى كل ما استطعت الإطلاع عليه من الشعر ودواوينه، وما اتصل به من الرباعيات والموشحات، كما رجعت إلى الكتابات النثرية المتنوعة من مثل الرسائل والمقامات والمواعظ والسير والقصص الشعبية، مع رسم الشخصيات الأدبية للشعراء والكتاب الأدب العربي في مصر قبل العصر الحديث تصويرًا كاملاً، إنما حاولت، وأرجو ألا أكون قصرت. والله أسأل أن يلهمني السداد في الفكر، والإخلاص في القول والعمل. وهو حسبي ونعم الوكيل.

القاهرة: في ٢٠ من مارس سنة ١٩٩٠م

شوقي ضيف

obeikandl.com